فضل التجاوز عن المدين المعْسِر

١٨ عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ :

« حُـوسِبَ رجلٌ ممنْ كانَ قـبلكُمْ ، فلم يُوجَـدْ له مِنَ الخَيْـرِ شَيءٌ إلا أنه كـانَ يُخـالِط[١] الناس ، وكـانَ مُوسِراً[٢] ، فكَان يأمرُ غِلْمانه أنْ يَتجاوزوا عن المعْسِرِ»

قال: قال الله عز وجل :

« نحنُ أحقُّ بذلِكَ مِنْه ، تَجاوزوا عَنْه »[٣].

---

(١) خلط القـوم وخـالطهم : داخلهم . وخليط الرجـل : مخـالطه . وخليط الـقوم : مـخـالطهم كـالنديم المنادم ، والجليس المجـالس . والخلطـة : الشركـة . وقـوله عـز وجل ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٤﴾﴾ (ص) .

فالخلطاء ههنا الشركاء الذين لا يـتميز ملك كل واحد من ملك صاحبه إلا بالقـسمة . (لسان العرب ـ مادة : خلط)

(٢) اليسـر واليسار والميسرة : السهـولة والغنى والسعـة . وأيسر الرجل إيساراً ويسـراً : صار ذا يسار. أى : استـغنى : يوسر . ويقال : أيسر أخاك أى: نفِّس عليـه فى الطلب ولا تعسره أى : لا تشدد عليه ولا تضيق . (لسان العرب ـ مادة : يسر).

(٣) أخرجـه أحمـد فى مسنده (٤/ ١١٨) ومـسلم فى صحيحـه (١٥٦١) والترمـذى فى سننه (١٣٠٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح . من حديث أبى مسعود الأنصارى .

وقد ورد هذا الحديث عن حـذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قـال : قال رسول الله ﷺ : « تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم . فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا . قالوا : تذكر . قال : كنت أداين الناس ، فآمر فتيـانى : أن يُنظروا المعسر ، ويتجوزوا عن الموسر ، قال قال الله عز وجل : تجوزوا عنه » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٦٠) .

وفى روايـة عنـه أيضـاً عند مسلـم : « أتـى الله بعبد من عـباده آتـاه الله مالاً ، فقال له :=

إن الإسلام قد بنى العملية الاقتصادية على الرِّفْد[1] والعطاء ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (البقرة)

هذا قانون يريد به الله تعالى أن يحارب الشح فى نفوس المخلوقين ، إنه يقول لكل منا : انظر النظرة الواعية ، فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح ، صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها ، ولكنك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها.

= ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : يا رب آتيتنى مالك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خُلقى الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأُنظِر المعسر . فقال الله : أنا أحق بذا منك ، تجاوزوا عن عبدى ».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله تعالى أن يتجاوز عنا ، فلما هلك ، قال الله عز وجل له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا . إلا أنه كان لى غلام ، وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته ليتقاضى . قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا . قال الله : قد تجاوزت عنك » أخرجه النسائى فى سننه (٧/ ٣١٨).

(١) الرفد : العطاء والصلة . رفده يرفده : أعطاه . وأرفده : أعانه . وترافدوا : أعان بعضهم بعضاً . والرفادة : شىء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية ، فيُخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج .

والإرفاد : الإعطاء والإعانة . والمرافدة : المعاونة . والترافد : التعاون . والاسترفاد : الاستعانة. والارتفاد : الكسب (لسان العرب ـ مادة : رفد) .

وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه .

فالحق سبحانه يطمئننا أن الصدقة والنفقة لا تنقص المال بل تزيده ، وضرب لنا المثل بالأرض التى تؤتينا بدل الحبة الواحدة سبعمائة حبة .

ورسول الله ﷺ يؤكد لنا هذه الحقيقة ، فيقول :

« ما نقص مال من صدقة» (١)

فالصدقة هى التى تكثر المال ، وتضع فيه البركة ، فيزداد وينمو ، والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد فى الدنيا ، ثم يموت الإنسان ويتركه .

فلا تعتقد أن الصدقة وإيتاء الزكاة ينقصان مالك ، فقد يكون هذا صحيحاً فى ظاهر الأمر ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك وينميه .

فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مِثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآن وأنت غنى هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرت ولجأت إلى الناس .

فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى ، تكون هذه عدالة وتأميناً

---

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩) . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها .

وساعة تعطى أنت الذى لا يملك ، لا بد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يوم لا تملك فيه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ (البقرة)

فالشيطان يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم الإنفاق فى وجوه الخير ، ويغريكم بالمعاصى والفحشاء ، فالغنىُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل فى قلب المحتاج الحقد ، وأىُّ مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه.

والحق سبحانه لا يسألك أن ترد عطاءه لك من المال ، إنما يطلب تعالى تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد وينمو ، وليخرج الضِّغْن [1] من المجتمع ، لأن الضغن حين يدخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام.

ولا يفيق المجتمع من هذا الضغن إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله ، فيتنبه إلى ضرورة إخراج الضغن منه ، لذلك يحذرنا سبحانه أن نسمع للشيطان.

---

(١) الضِّغْن والضَّغَن : الحقد والجمع أضغان، وكذلك الضغينة، وجمعها الضغائن. والضغن : الحقد والعداوة والبغضاء . وتضاغن القوم واضطغنوا : انطووا على الأحقاد . (لسان العرب - مادة : ضغن).

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ (البقرة)

فالذى يسمع لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلى وعد الله يصبح كمن رحَّج عدو الله على الله ـ أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف ـ إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم.

وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مُضلّل ، وخبرة الإنسان مع الإيمان بالله تؤكد للإنسان أن الله واسع المغفرة ، كثير العطاء لعباده.

والحكمة تقتضى أن نعرف إلى أىِّ الطرق نهتدى ونسير .

ومن الإنفاق فى سبيل الله إقراض المحتاجين المقترضين قرضاً حسناً لا يدخله رِباً ولا مَنٌّ[1] ولا أذىً.

يقول تعالى :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ (البقرة)

---

(١) مَنَّ عليه منة : امتن عليه ، يقال : المنة تهدم الصنيعة. وقوله عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ... (٢٦٤)** ﴾ (البقرة) المنُّ هنا : أن تَمُنَّ بما أعطيت وتعتد به كأنك إنما تقصد به الاعتداد ، والأذى : أن تُوبِّخ المعطى ، فأعلم الله أن المن والأذى يبطلان الصدقة. (لسان العرب - مادة : منن).

ساعة تسمع ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ (البقرة) فذلك أمر عظيم لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، وتعاملك يكون مع الله.

والحق سبحانه يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض فى اللغة [١] معناه : قَضْم الشىء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله «يقرض».

إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها ، ويُقدِّر الجزاء على قَدْر الصعوبة.

ولكن ما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

إنك إذا أقرضتَ عبداً من عباد الله فكأنك أقرضتَ الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وهو سبحانه يبلغنا : أن مَنْ يقرض عبادى فكأنه أقرضنى ، كيف ؟

لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته

(١) القرض : القطع. قرضه يقرضه : قطعه. والقراضة : ما سقط بالقرض ومنه قراضة الذهب. والقراضة : فُضالة ما يقرض الفأر من خبز أو ثوب أو غيرهما ، وكذلك قُراضات الثوب التى يقطعها الخياط. قال الجوهرى : القرض ، ما يعطيه من المال ليُقضاه . (لسان العرب ـ مادة: قرض).

مطلوبة لرزقه فى الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يُقرض الله المتكفِّل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى ﴿ **يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥)** ﴾ (البقرة) يدلنا على أن القرض لا يضيع، لأن القرض شىء تُخرجه من مالك على أَمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يُطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيردُّ ما اقترضه ، لكن ليس فى صورة ما قدمت ، وإنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة.

إن الأصل محفوظ مستثمر ، ولذلك يقول :

﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)** ﴾ (البقرة)

إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل ، لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا على أن مصدر المال الذى تُقرض منه لابُدَّ أن يكون من حلال [١]، ولذلك قيل للمرأة التى تتصدق من مال الزنا : «ليتها لم تَزْنِ ولم تتصدق ».

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ **يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)** ﴾ (المؤمنون) وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...** (١٧٢) ﴾ (البقرة) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك » أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الزكاة ـ حديث ٦٥.

وقيل : إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله ، فى حين أن القرض هو دَيْن يسترجعه صاحبه ؛ لأن الألم فى إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة ، فأنت تُخرجها وتفقد الأمل فيها.

أما القرض فتتعلق نفسك به ، فكلما صبرتَ مرة أتتْك حسنة ، كما أن المتصدَّق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا مُحتاجاً.

والقرض من المال الذى لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافاً مُضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماماً لقوله تعالى : ﴿ **يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ... (٢٤٥)** ﴾ (البقرة)

أى : أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ، ولكن الله سبحانه يزيده ويبسطه أضعافاً مُضَاعفة ، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

وإذا احتاج أخ مسلم فالحق سبحانه لا يقول لك « أعطه من عندك ، أو أقرضه من عندك » إنما يقول لك : « أقرضنى أنا ، لأنِّى أنا الذى أوجدتُه فى الكون ، ورِزْقه مطلوب مِنِّى ».

فكأنك حين تعطيه تقرض الله.

إنه سبحانه مُتفضِّل بالنعمة ، ثم يسألك أن تقرضه هو.

والحق سبحانه بذلك قد أغنى عباده عن أن يذلوا أنفسهم لغيره تعالى ، فسبحانه أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأىِّ مصدر من مصادر القوة ،

أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

إنْ أردت أيها الإنسان عِزّاً ينتظم ويفوق كل عز ، فاذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزّنا فنحن خَلْقه ، وهذا يتمثل فى أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ... ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة ، العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله.

ومع أن المال مال الله ، فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ، ابتغاءَ مرضاةِ الله ، واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جَلَّ جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يُقرِض الله .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ مَيْزة وشرف أنه أعطى لله ، والفقير أخذ مَيْزة ، لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

والمال ليس غاية فى حَدِّ ذاته ، ولكنه وسيلة ، وعندما يمنع الغنىُّ ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غايةً فلا ينفعه.

أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ، فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى

أنه وسيلة من وسائل الحياة ، وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ، فعليك أن تُوظِّفه فى أكمل ما ينفعك ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

والحق سبحانه يصف القرض بأنه حسن ، حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض ، وإلا صار فى القرض رِباً.

ولنا الأُسْوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له، واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال ، وجاء اليوم التالى للقرض، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت : لماذا تجلس بعيدًا ؟

أجاب أبو حنيفة : خِفْتُ أن يكون ذلك لوناً من الربا.

قال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تُقرضنى ؟ !

فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل علىَّ بظلِّ بيتك ، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضِّل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذىً أو منفعة ، ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(البقرة)

فالحق سبحانه يحمى المقترض من نفسه ، لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسُدَّ هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه ، لكن إن لم يُكتَب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض.

ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أىِّ أزمة ، فيريد سبحانه أن يُديم الأسباب التى تُتداول فيها الحركة .

ولذلك يُقال فى الأمثلة العامية : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المال له ، ويكون مال الدنيا كلها معه.

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ[1] عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا .... (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

وفى ذلك حمايةٌ للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية[2] الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ... (٢٨٣) ﴾ (البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية.

ونجد رسول الله ﷺ وهوالرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات

---

(١) القِسْط: العدل. ويقال : أقسط وقسط إذا عدل، وأقسط فى حكمه: عدل ، فهو مُقسِط ، والإقساط: العدل فى القسمة والحكم. (لسان العرب ـ مادة : قسط).

(٢) الأرْيح : الواسع من كل شىء . والأريحى : الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف . والاسم الأريحية . (لسان العرب ـ مادة : ريح).

وعليه دين ، فقال للصحابة : صَلُّوا على أخيكم[1]. لكنه لم يُصلِّ على الميت.

وتساءل الناس : لماذا لم يُصَلِّ رسول الله على هذا الميت ؟ وما ذنبه ؟

كأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين ، فلم يمنع الصلاة، ولكنه لم يُصَلِّ عليه حَفْزاً للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يُبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين .

ورسول الله ﷺ قال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه .. ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2]

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قَدَّم القرض ألاَّ يمر على المقترض حتى لا يحرجه ، ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض ، لأن المقترض يريد أن يسدد القرض.

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُؤتَى بالرجل الميت عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ، فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال : « صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن تُوفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٤١١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

أما إنْ تحرَّك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدَّيْن ، فَلْيُفهم أن عند الذى اقترض بعضَ مَا يسدد به الدَّيْن . أى : أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج مَنْ يَجِدّ ويجتهد فى السعى لسداد دينه.

والحق سبحانه يُوجِّه المدين إلى أداء دَيْنه ، ويُوجِّه المؤتمن إلى أن يؤدى أمانته، فيقول سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. ﴿٢٨٣﴾ ﴾

(البقرة)

إنه الطموح الإيمانى ، لم يَسُدّ الله مسألة المروءة والإيثار فى التعامل ، إن كتابة الدين والإشهاد والرَّهْن ليس إلزاماً . وقد يفهم البعض أن الذى أؤتمن هو المدين، وهنا نقول : لا . إن الأمر مختلف ، فهنا رِهان ، وذلك معناه وجود مسألتين :

المسألة الأولى : هى «الدَّيْن» .

والمسألة الثانية : هى « الرهان المقبوضة» .

وهى مقابل الدين ، فواحد مأمون على الرَّهْن فى يده ، والآخر مأمون على الدَّيْن.

ولهذا يكون القول الحكيم مقصوداً به مَنْ بيده الرَّهن ، ومن بيده الدَّيْن ، ومعنى ذلك أن يؤدى مَنْ معه الرهن أمانته ، وأن يؤدى الآخر دينه.

وحين نرتقى إلى هذا المستوى فى التعامل فإن وازع الإنسان ليس فى التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيمانى بالنفس.

ولكن ، أنضمن أن يوجد التوثيق الإيمانى عند كل الناس ؟

أنضمن الظروف؟

نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمُّل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء ، فقد يأتى واحد ويقول لك : إن عندى مائة جنيه ، وخُذها أمانة عندك.

ومعنى « أمانة » أنه لا يوجد صَكّ[1] ، ولا شهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإن شئتَ أقررتَ بهذه الجنيهات المائة ، وإن شئتَ أنكرتها.

إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية . ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك : نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة. وتكون نيتك أن ترديها له ساعة أن يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار.

ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضَغْطاً يجعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لمن ائتمنك :

---

(١) الصك : الكتاب . فارسى معرب ، وجمعه صكوك وصكاك ، وأصله چكّ . وكانت الأرزاق تسمى صكوكاً لأنها كانت تُخرج مكتوبة . (لسان العرب ـ مادة : صك).

ابعد عنى ، أنا لا أملك نفسى فى وقت الأداء ، وإن ملكت نفسى وقت التحمُّل.

إذن : فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدى الأمانة إلا أنه عُرْضة للأغيار ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة)

فالكتابة فرصة ليحمى الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالله سبحانه يريد أن يُوثِّق الأمر توثيقاً ، لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمَّتك الإيمانية فقط، ولكنك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضاً ، وذلك يكون بكتابة الدَّيْن صغيراً أو كبيراً إلى أجله.

ولكن إنْ كان المدين راغباً فى سداد ما عليه ، ولكنه مُعْسِرٌ ، أى : ليست عنده قدرة على السداد ، حين يوجه الحق سبحانه عباده المؤمنين فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (البقرة)

فتوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ... ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (البقرة)

أى : فإن وُجِد ذو عُسْرة (فنظرة) من الدائن (إلى ميسرة) أى : إلى أن يتيسر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة «قَرْضاً حسناً».

وكلما صبر عليه لحظةً أعطاه الله عليها ثواباً.

ولنا أن نعرف أن ثوابَ القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ، لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثواباً على ذلك دفعة واحدة .

لكن القرض حين تُعطيه فقلبك يكون مُتعلِّقاً به ، فكلما يكون التعلق به شديداً ، ويهب عليك حب المال ، وتصبر فأنت تأخذ ثواباً .

ويجب أن تلحظ أن هناك فارقاً بين معذور بحق ، ومعذور بباطل .

المعذور بحق هو الذى يحاول جاهداً أن يُسدِّد دَيْنه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسُدُّ دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السداد ، ويبقى المال ينتفع به ، وهو بهذا ظالم .

ولذلك جَرِّب نفسك ، ستجد أن كل دَيْن يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد . وكل دين كان بَرْداً وسلاماً على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد ، وربما استحييتَ أنت أن تمرَّ عليه مخافة أن تحرجه بمجرد رؤيتك .

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيْن طويلاً ، لأن الرسول ﷺ حكم فى هذه القضية حُكْماً فقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » .

فما دام ساعة أخذها كان فى نيته أن يؤدى فإن الله ييسر له سبيل الأداء ، ومن أخذها يريد إتلافها فالله لا ييسر له أن يسدد ، لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه.

وفى حياة الرسول ﷺ واقعة تفسر لنا هذا الحديث ، فقد مات رجل عليه دين ، فلما علم رسول الله ﷺ أنه مدين ، قال لأصحابه :

« صَلُّوا على أخيكم»

إذنْ : فهو لم يُصَلِّ ، ولكنه طلب من أصحابه أن يُصَلُّوا، لماذا لم يُصَلِّ ؟ لأنه قال قضية سابقة « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه».

ما دام قد مات ولم يُؤدِّ ، إذن : فقد كان فى نيته أن يماطل ، لكن الرسول ﷺ لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه.

والرسول ﷺ يأتى للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية ، فيقول :

« مَنْ أنظر مُعْسِراً ـ أو وضع عنه ـ أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1].

ومعنى « أنظر » أى : أمهل وأخَّر أخْذ الدَّيْن منه ، فلا يلاحقه ، فلا يحبسه فى دينه ، فلا يطارده .

وإن تسامى فى اليقين الإيمانى يقول له «اذهب ، الله يعوض علىّ وعليك » وتنتهى المسألة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٧) من حديث أبى اليسر ، وهو كعب بن عمرو ، شهد العقبة ، وبدرًا ، توفى بالمدينة سنة ٥٥ هـ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

والثمرة هى حُسْن الجزاء من الله ، فإما أن تُنظر وتؤخر ، وإما أن تتصدق ببعض الدَّيْن أو بكل الدَّيْن . وأنت حُرٌّ فى أن تفعل ما تشاء ، فانظروا دِقَّة الحق سبحانه عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التى هى الشغل الشاغل لحركة المجتمع بين الدائنين والمدينين.

وعفوك عن المدين المعسر يقابله الله بالعفو عنك ، وبالتجاوز عن ما اقترفته من ذنوب يوم القيامة.

ولا يمكن أن يكون للعفو مزية إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت ، وسبحانه يعفو مع القدرة ، فإن أردتَ أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة .

ولنا أن نعلم أن الحق سبحانه لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ، ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، وما دُمْنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة ، وهذه هى المزية الإيمانية ، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى ، أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً ، بحيث إنْ ناله سوء فهو يعفو عن قدرة .

وخلق العفو أمر يركزه الحق سبحانه فى قلوب المؤمنين به ، لتكون هناك الأريحية الإيمانية النابعة من أخوة إيمانية ، تربط قلوب المؤمنين برباط وثيق.

والعفو هو كما نقول : فلان عفَّى علىَّ آثارى. أى : أن آثارك تكون واضحة على الأرض . وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر.

والأمر بالعفو أى : امسح الأثر لذنب فعلوه ، والخطيئة التى ارتكبوها عليك ، أن تعتبرها كأنها لم تحدث.

وهذا مقام الإحسان ، والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (المائدة)

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو مَنْ يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فهو سبحانه يرى كل خَلْقه.

ومثال هذا : فإن الله قد كلَّفَ المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حُرٌّ بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فَلْيقُمْ إلى صلاة الفجر.

لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ؛ فيزيد من صلواته فى الليل.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ (النور)

فإذا كنتَ تحب أن يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟

وما دُمْتَ تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم ، واعْفُ عنهم يعْفُ الله عنك ويتجاوز.

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، وحين تريد أن تفسر حُبَّ الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ستجد القضية صحيحة.

فإنْ أساء أخوك إليك سيئة ، فإما أن تردَّ بالمثل ، أو تكظم الغيظ ، أو تَرْقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمْتَ تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقِّك ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ (١) .... (٢٢) ﴾ (النور)

---

(١) نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به فى حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك ، فأنزل سبحانه الآية . فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله =

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ، لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى، وفوق ذلك فأنت تترك دَيْنك أو تُنظر وتُؤخِّر المدين ، وعند ذلك تكون الراحة.

وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى فى جانبه.

***

= لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . وتمام الآية: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾**﴾ (النور) .